الهجرة في الأدب العربي المعاصر لعمر الشارني (1 من 3)

كتبه في ظل غزو العراق... ومارس فيه «جلد الذات» كتعبير عن إخفاقات وانكسارات اللحظة التاريخية الراهنة

المكان في لا وعي المهاجر يتحول من طوبوغرافيا الخطوط والمتوازيات... إلى قطعة مكثفة لغويا وإيحائيا وشعريا

سعيد بوخليط*

مقدمة

أصدر الباحث والمفكر التونسي عمر الشارني، أستاذ الفلسفة بالجامعة التونسية وكذا جامعة Clermont ـ Ferrand الفرنسية، كتابا باللغة الفرنسية تحت عنوان: «رموز الهجرة في الادب العربي المعاصر» يتناول فيه تداول تيمة الهجرة داخل بعض نصوص الأدب العربي الحديث من خلال ثلاثة نماذج هي: توفيق الحكيم / الطيب صالح / أحلام مستغانمي.

ولا شك أن هذا العمل، يشكل إضافة كمية ونوعية داخل الخزانة العربية. وبالأخص الكتابات الفرنسية التي تناولت بعض قضايا أدبنا العربي الحديث والمعاصر، مع العلم أن الدراسات التي جاءت بلغات أجنبية بهذا الخصوص قليلة جدا، ومعدودة على رؤوس الأصابع. نتيجة ذلك بطبيعة الحال، جهل القارئ الأوروبي بالاشتغالات الراهنة لمفكرينا وأدبائنا، وشعرائنا.

وإذا كان تقليد خلق مؤسسات ثقافية، تهتم بالترجمة لا زال ضعيفا إن لم يكن منعدما في البلاد العربية من أجل التعريف بالثقافة العربية، مع العلم أن الرهان على المعرفة، يزداد حجمه يوما بعد يوم في عالمنا المعاصر، فإن الأمر يبقى داخل سياقنا الثقافي مقتصرا على كتابات واشتغالات ومبادرات فردية لمبدعين أخذوا على عاتقهم تقديم نماذج من تفكيرنا إلى الغرب.

يدخل كتاب الأستاذ الشارني، في هذه الخانة متوخيا بلغة فرنسية راقية وعلى درجة عالية من الأكاديمية، ترجمة وتحليل ومقارنة وكذا تأويل، تجارب إبداعية جاءت أصلا باللغة العربية. هذا العمل في رأيي على موقفين أساسيين:

1ـ هناك الحمولة الإيديولوجية، باعتبار الأستاذ الشارني مثقفا عربيا تقدميا، يؤمن بمبادئ الحداثة الكونية. ويدافع عن القيم الإنسانية الكبرى.

2ـ خطاب نقد الأدب، وهو في حقيقة الأمر لا ينطلق من ترسانة نظرية جاهزة وقبلية لمقاربة النصوص، لأن الأستاذ الشارني، قبل كل شيء يشتغل على الفلسفة والإبستمولوجيا وتاريخ العلم. وليس بالناقد الأدبي المتخصص. وإن كنت شخصيا لا أتفق مع هذه التصنيفات المؤسساتية. و لا أومن بتاتا بحدود للمعرفة أو بين حقول هذه المعرفة، إضافة إلى أن من يملك خطابا فلسفيا مبدعا، فإنه يستحوذ حتما على كل مفاتيح العلم والعالم السرية منها والجلية، وبالتالي يصبح سيد الأشياء.

الأستاذ الشارني بالأساس عاشق للأدب، يمارس لعبة الحلم هاته بامتياز وعنفوان كما هو الحال في حواراته الحالية مع الحكيم والطيب صالح وكذا أحلام مستغانمي، مؤكدا بأن دراسته لروايات الهجرة هاته، لا تحيل على وضع الرجل المتخصص، بل تحمل بالأساس هوى وولعا وعشقاً للأدب، متوخيا تقديم هذه النصوص إلى القارئ غير العربي، وبالتالي سعى إلى أن يكون أمينا قدر الإمكان ملتصقا بها.

لكن ما معنى أن يكتب اليوم مثقف عربي مؤلفا بلغة أجنبية، عن جزء يهم بامتياز الثقافة العربية، وليكن الأدب؟

أعتقد أنه من الأمور الزائفة في بعض النقاشات التي سادت الثقافة العربية، هو النقاش المغلوط أساسا المرتبط بمسألة الكتابة بلغة أجنبية، ما دام أن الأمر، حسب هذا الرأي يتعلق بمظهر استعماري يسعى إلى تغليب لغة أجنبية (الفرنسية، والإنكليزية بالخصوص) على حساب اللغة العربية، لأن ذلك يمس «بهيبة» و «قيمة» العربية في مضمار تصارعها مع اللغات الأخرى، وانطلاقا كذلك من التصور الذي يؤكد بأن اللغة تعكس الفكر، وبالتالي فالاشتغال بلغة أجنبية يعبر عن رؤية أهل تلك اللغة للعالم، ومحاولة عكس طريقة تفكيرهم على ثقافتنا مما يؤدي إلى زعزعة مرجعيتنا الفكرية وثوابت عقيدتنا...!!!

تحوير النقاش في هذا الاتجاه عبر ويعبر عن رؤية لا تاريخية، ويعكس نزعة دوغماطيقية ضيقة. استهلك ذلك كثيرا الفكر العربي، كما أنه أثر عكسيا على اللغة العربية، حيث حال بينها وبين التطور التاريخي السليم. كان من الممكن أن يتأتى من هذا التمازج والاختلاط والتلاقح بينها وبين اللغات الأخرى. لذلك تجب الإشارة إلى المسائل التالية:

* لا تحمل مسألة اللغة قيمة في ذاتها، بل ماهيتها تقوم بالأساس على مدى قدرتنا على تطوير لعبة تخصيب دلالاتها الإيحائية ومدى إبداعيتنا على تكثيف مرآويتها فيما يخص اللحظة التي تسعى إلى تكثيفها مجازيا في متواليات لغوية.

* اختيار اللغة المستعملة، متروك بالدرجة الأولى لحرية المبدع واللغة التي يتقنها أكثر ويرتاح للكتابة بها. وبالتالي ليس قدرا أن يكتب بالعربية إن كان عربيا، أو الفرنسية إن كان فرنسيا.... المهم في رأيي أن يدافع عن القيم التنويرية التي ناضلت الإنسانية من أجلها.

* مصير كل ثقافة هو الكونية والعالمية، وبالتالي على المثقف أن يبحث قدر المستطاع، لكي يتموضع فوق الأمواج التي تنكسر على شاطئ الكونية. صحيح أن المثقف العربي، لا يزال بعيدا كل البعد عن هذا الأفق. مسألة يختلط فيها بالتأكيد الذاتي بالموضوعي. صحيح أيضا، أن الشروط السوسيو ـ اقتصادية وكذا المعرفية التي تحكم هذا المثقف غير ملائمة كليا من أجل تفعيل اشتغال فكري متين. لكن كذلك عطالة هذا المثقف وسلبياته،تلعب في كثير من الأحيان دورا فاعلا بهذا الخصوص.

* إن قوة أية لغة، ترتبط فقط بالامتداد الاقتصادي والسياسي لأصحابها، وبالتالي فاللغات المنتشرة الآن في العالم، تدل بجلاء على القوة المالية والسياسية لتلك الأمم المسيطرة. غير ذلك، يدخل في باب الأساطير.

* يقاس حضور أية لغة بدرجة الإشعاع الثقافي والفكري الذي تمارسه على المستوى الكوني، وحجم مساهمتها في التحقق اليومي لسيرورة الحضارة. لذا يمكننا أن نتساءل في هذا السياق على الشكل التالي: كم عدد الأفكار التي تنتج هذه اللغة يوميا؟ وكم من الكتب تصدر؟ ما درجة تداولها في المؤسسات الفكرية والأكاديمية؟ ما هو عدد القارئين الذين تطويهم في جسدها؟ ثم مقدار العلماء والفلاسفة الذين يلجؤون إليها؟...

* تحولت اللغة ـ بل كان الأمر دائما كذلك ـ إلى برنامج سياسي، تدخل ضمن الاستراتيجيات والمشاريع والمخططات السياسية للدول والهيئات والأحزاب والجمعيات...، وبالتالي فإن قدرة هذه اللغة على اختراق الكونية، يرجع إلى مدى تفعيل هذا البرنامج، وتحويله إلى قوة واقعية ملموسة. فالقرار السياسي وإجرائيته جوهري في هذا المقام.

* يجب تجاوز الرؤية التاريخية الضيقة التي غلفت الأفق الفكري لجموعة من المفكرين. والتحلي بنظرة واسعة فيما يخص هذا التحاور اللغوي. العربية أو الفرنسية أو الإنكليزية...، لا يهم. ليس من الضروري، أن نربط هذه اللغة أو تلك بخلفيات سياسية غير بريئة، وبأن الفرنسية تعبر ثقافيا عن توسع استعماري للفرنسيين، وكون الإنكليزية تنطوي على نزعة تستهدف أمركة العالم ونشر القيم الانجلوساكسونية.... أنا شخصيا، أحلم بإتقان كل اللغات ولا مشكلة لدي مع أي منها...

المنحى الايديولوجي لكتاب أشكال الهجرة

لماذا نهاجر؟ ونركب قطار الرحيل؟ كيف يمكننا أن نترك بسهولة تلك القطعة الجغرافية والمكان الحميمي، لكي نمتطي أحلام الاجتثاث؟.لا شك أن مفهوم الهجرة، لا يتوقف فقط على لعبة المكان، ولكنه يتجاوز ذلك إلى أبعاد فلسفية عميقة تتجاوز الذات والمكان والزمان والناس.

كل واحد منا يهاجر! نهاجر داخل اللغة والجسد والسؤال والآخر والأفكار والآفاق والقناعات والمبادئ والاختيارات: ببساطة الإنسان قضية رحيل دائم.

بين الحياة والموت هجرة، ومن الحياة إلى الحياة هجرة، وداخل مساحة الموت والميتات هجرة. قد نهاجر و لا نترك أثرا، وبالتالي يتحول التاريخ إلى ضجيج، بل فراغ خواء.

الهجرة قضية، إنها مادة للأفكار. مضمونها التراجيدي في معظم الأحيان جعل منها سبيلا وأفقا للمغايرة الوجودية. ولا شك أنها محور للغة عبثية قد تأخذنا من أو إلى أنفسنا والعالم والآخر. يكون هذا الآخر دائما سياقا للهجرة. الآخر «جحيم» قبل الرحيل، و «جحيم» كذلك عند الاستيطان، الذي سيتحول بدوره إلى رحيل ثان، وهكذا دواليك.

الوطن والمرأة والمواقف والهويات... ، هجرة. أي انفلاتات داخل تأسيسات. مفهوم فلسفي عميق، ربما يفكك شيئا أم أبينا ثنائية صارمة ظلت منغلقة، لا تنفصم أواصرها منذ أن سقط آدم خطأ أي: هجرة الوطن.

ما هو الوطن؟ يكون في البدء مصيرا قدريا، تجده يلاحقك في نفس اللحظة التي ترتبط بها حتميا باسمك أو لونك أو ملامحك أوآبائك أو أجدادك أو عشيرتك... إلخ. بعد ذلك، يأخذ هذا الوطن لعبة مفهومية أو صورة شعرية بل وحتى هلوسة. تفكيك وتكسير متواصل لأي إطار، ربما ذلك ما يمكن من إيجاد تصالح مع ذواتنا.

ينطلق الأستاذ الشارني،من مفهوم للوطن يقوم على تصور وموقف أساسه علاقة نفسية حميمية وارتباط غير مفسرين، في أغلب الأحيان بين الذات وحيز ما.

الباحث هنا نفسه مهاجر ـ أستاذ تونسي للفلسفة في جامعة فرنسية ـ لذلك فشهادته صادقة. يسقط كل مشاعره، بحواس حية تشتغل بذكاء.

ثلاثة نماذج: توفيق الحكيم، الطيب صالح، أحلام مستغانمي

لماذا بالضبط نصوص هؤلاء؟ أي شيء يجمع الحكيم والطيب صالح بأحلام مستغانمي؟ هل كان الاختيار اعتباطيا؟ أم حاول الأستاذ الشارني بالفعل الاستناد على استراتيجية تم تدبيرها قبليا !

أعتقد بأن الأمر سواء أخذ هذا الوجه أو ذاك، فإنه لم يخرج عن بناء معماري مرسوم بطريقة جيدة في سياق لغوي ومفهومي غني جدا.

الحكيم في الهجرة من أجل الدراسة، قد يدخل في إطار التجارب الكلاسيكية البسيطة، التي لا تتجاوز لعبة حزم الحقائب. التوجه إلى الهناك، لا يعني بأي معنى من المعاني، تعديم ونفي للهنا.

أما الهجرة عند الطيب صالح ومستغانمي، فإن حيزها الإشكالي اكثر إثارة وتتأسس على أبعاد وخلفيات انطولوجية في المقام الأول ثم سياسية واجتماعية واقتصادية.

مصطفى سعيد بطل «موسم الهجرة إلى الشمال»، يحمل في ذاته مجموعة من المآزق الوجودية، مجسدا بذلك حقيقة كيفية ونوعية ودرجة وعي متقدمة جدا، داخل واقع مجتمعي نمطي محكوم ببنيات تقليدية بل شائخة ومترهلة. وهي بالتالي هجرة للمفهوم والنظرية أكثر منها هجرة للجسد، ما دام أن هذا الأخير في حقيقة الأمر مبرر ويعثر باستمرار على سياقاته بشكل منسجم.

قد نعيش بجسد واحد، لكن تخترقنا عشرات الأفكار. يجد الجسد ضالته في لحظة إشباع تامة، لكن الاختلاف يظل الشرطية التي تحكم أفق هذا الجسد وسيرورته. مما يحدث هذا الانفلات بين جسد في جسده، وجسد لجسده.

شكلت الهجرة في كل الآداب العالمية، تيمة وموضوعا أساسيا للكتابة، محكومة خاصة بالبعد التراجيدي المأساوي. لا أعرف لماذا؟ ربما لأن الهجرة تحيل على كل معاني الرحيل، وما يستتبع ذلك عند الذات من صور مجازية تحيل على: الاجتثاث واللا ـ تجذر و اللا ـ ستيطان...، والعدم.

يتحول المكان في لا وعي المهاجر من طوبوغرافيا الخطوط والمتوازيات والمنحرفات والمربعات...،إلى قطعة مكثفة لغويا وإيحائيا ثم شعريا.

نرتبط بالمكان سيكولوجيا، لأنه كنظام مفهومي يؤسس بمعنى من المعاني خطابا مقابلا لكل ما يحيل على الموت: المكان هو اللاعدم.

وبالتالي الاستمرار السرمدي على مستوى الوعي وكذا الارتباط النوستالجي بما يسمى مجازا «وطن» يدخل في إطار كل ما يؤسس للا ـ نسيان باعتباره سلبا للوجود.

بالتأكيد حين نكتب، نمطط العالم على بياض الورق. نفترض أن شيئا ما قد يحدث على هامش مساحة الكتابة هاته؟ يتحدث الثوريون على أن الكتابة احتجاج؟ أي نفي! لأننا نتوخى أساسا من خلالها لحظة إنسانية ثانية. ولأن هناك أشياء كثيرة لم تحدث بعد، يتحتم بالتالي وقوعها قبل أن ينهي المصير قصته الرديئة والبليدة والمتسلطة.

حينما نكتب، فإننا نحول هذا المصير إلى قضية. كما يحلو للإيديولوجيين تسمية ذلك.

لماذا نكتب عن الهجرة؟ قد نسقط أفكارنا على الهجرة ونقاربها بنفس المعنى الذي نلامس فيه الموت. وبالتالي الأستاذ الشارني،نفسه لم يخرج عن هذا المنحى التراجيدي ، فقد عبر مرارا وعلى امتداد طبقات هذا العمل بأنه يفتقد كثيرا وطنه وانتماءه العربي، حتى ولو كان عمله هذا يشكل في حقيقة الأمر صرخة احتجاج ضد المؤسسات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية...، التي تهيكل مجموعة الوطن العربي، وتعريته لواقع عربي سلطوي توتاليتاري محكوم بمجموعة من البنيات اللاتاريخية على جميع المسويات.

ذلك أن المثقف حسب الأستاذ الشارني ليس من مهمة له إلا: « «شعبه ووطنه: هنا مكانه الطبيعي» وقدره. هنا يرسم طريق حياته المجيدة: هنا يجب أن يحفر بيديه قبره الخاص! ولكن بقدر ما عليه الارتباط بوطنه، والانخراط في قيمه والانصهار في حب بواديه ومدنه ورجاله ونسائه، انجازاته واخفاقاته بقدر ما يكون كذلك العين اليقظة والثاقبة التي تحكم وتراقب، تفحص وتحكم ثم تزمجر وتضجر».

سيوظف الأستاذ الشارني إذن نماذج روائية، تعبر في رأيه أكثر من غيرها على طبيعة المواقف والرؤى النقدية التي يتوخى صياغتها في قالب مفهومي ونظري.

الوطن .. الحلقة المفقودة

صحيح أن لحظة مستغانمي وقبلها الطيب صالح متقدمة نظريا أكثر ومعبرة على مستوى الحمولة النظرية والمفهومية. فالخلفية التاريخية للهجرة في هذين النموذجين، أعمق بكثير من نمط توفيق الحكيم. لكن يبقى الوطن دائما، الحلقة المفقودة والخليط الناظم لحكاياتهم.

لا يوظف الوطن هنا نوستالجيا، لكي يعيد ربط الكتاب ببلده الأصلي تونس، ولكنه في حقيقة الأمر يشغل مجازيا قطعة جغرافية تمتد على مستوى الوطن العربي كله. حيث نلامس عند الأستاذ الشارني نزعة قومية صادقة ربما تعيدنا بشكل كبير إلى سنوات الستينات السبعينات لحظة المد الإيديولوجي القومي والناصري وكذا التنظيمات اليسارية والتقدمية العربية. يقول الأستاذ الشارني في هذا السياق: «لم يكن لدينا أفضل المفكرين غير التنظيمات الفلسطينية واليسار العربي والذين صاحوا بصراحة وقوة على امتداد سنوات الستينات أن الطريق إلى القدس يمر من عمان والرياض ودمشق والقاهرة إلخ. نلاحظ اليوم كم كانت هذه المواقف صحيحة». وما رافق ذلك من متن نظري وإيديولوجي كبير، جسد هذا النزوع السيكولوجي بالدرجة الأولى، والوحدة العضوية وكذا التاريخية التي تحكم هذه المجموعة البشرية التي يطلق عليها اسم: العرب.

لقد عبر الأستاذ الشارني في حوار أجريته معه بأنه كتب هذا العمل، وهو يشهد غزو واحتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، القلب النابض للأمة العربية وتطلعاتها التقدمية. ولأنه أولا وأخيرا مثقف ومفكر، فإن سلاحه الأساسي يكمن في الكتابة.

ربما سنلمس أثناء قراءتنا لهذا الكتاب أنه يجسد ما يسميه الباحث نفسه بـ «جلد الذات»، أي أن اللحظة التاريخية الحالية التي نعيشها بإخفاقاتها وانكساراتها واحباطاتها وهزائمها... وسورياليتها نتيجة في حقيقة الأمر لعوامل ذاتية اكثر منها موضوعية.

نظامنا التعليمي ضعيف جدا، بدائي وضحل لا يرقى إلى مستوى التطورات التاريخية. غياب الديموقراطية وتسلط الأنظمة السياسية، التي ينتفي معها أي تحقق محتمل لبوادر مجتمع مدني، منفتح، عصري، ديمقراطي وحداثي. قادر على مجابهة التحديات التاريخية الكبرى والآفاق الكونية الممكنة، إضافة إلى الوهن الضعف الذي يلف جميع مؤسساتنا ومرافق حياتنا مما حولنا إلى أمة وكتلة بشرية هامدة كليا مصابة بالخواء، تعيش على هامش الحياة والتاريخ والإنسانية.

الهجرة دائما إلى الغرب أو الشمال أو أوروبا. لا تمثل المطلق و لكنها تبقى النموذج الأول، والمعيار الحضاري للمقايسة.

تمثل أوروبا الحداثة والديمقراطية والانفتاح والعدالة الاجتماعية ثم النظام التعليمي المنفتح والمرتبط أساسا بالبنيات الاجتماعية، ينصت لحاجاتها. كما ان المجتمع يطرح بدوره أسئلة أخرى على التعليم. جدلية دائمة ومرنة تؤثث المجتمع، بمجموعة من القيم يمكن أن نختزلها قولا في: الدينامية الإبداعية للحظة.

الإحباط نتيجة الاصطدام بواقع مجتمعي جامد لا يتحرك، يدفع ويحث للبحث عن النموذج الذي يمثل حقا مجالا حقيقيا لممارسة فعل الحياة بكل ثقله.

تقوم بالتأكيد باريس أو لندن أو برلين...، في المقابل وعلى الطرف الثاني من نموذج آخر قد يكون الخرطوم او الجزائر أو القاهرة أو الرباط... وكل العواصم العربية الأخرى. ولا شك أن الإحساس بجحيم هذا القدر السيء قد يكبر ويتضاعف مع الذات المثقفة، النوعية منها أساسا التي تدرك اكثر منها غيرها طبيعة الحقل والمجال الجهنمي الذي نتحرك داخله على امتداد الوطن العربي.

من الناحية الفنية، فإن كلمة «حصار» تفتقر لنوع من الإستتيقا الشعرية الإيحائية، فهي ترتبط وثوقا بقاموس السياسة. وبالتالي ربما تصلح أكثر لبيانات الهيئات وكذا الأحزاب والتنظيمات التقدمية، من وصف مقاربة حالمة لمجموعة من النصوص الإبداعية الجميلة على مستوى الرؤية ومساحة اللغة.

لكن ما يبرر ذلك، هو أن كلمة «حصار» تدوولت بشكل كبير في العالم العربي، وتحولت ربما إلى مفتاح سري نتمثل به واقعا، لا يتوقف عن تسويغ وتبرير معاني السقوط والهزيمة.

كتاب الأستاذ الشارني هو في حقيقة الأمر بيان وصرخة من قبل مثقف وأستاذ للفلسفة تقدمي، يعرف جيدا قيمة الأفكار التنويرية والحداثية التي جاءت بها النصوص الفلسفية الكبرى. وبحكم تواجده في أوروبا، فإنه يعاين عن قرب وبشكل يومي القيمة التاريخية والإنسانية لما يمكن تسميته بدولة المؤسسات الحيوية التي تظهرها سياسيا وثقافيا واقتصاديا، عكس ما يحدث داخل العالم العربي.

يفضح إذن هذا العمل فنيا لعبة الحصار التي تمارس علينا سواء من الداخل أو الخارج، ارتباطا بعوامل تبقى داخلية وذاتية بالأساس.

القيمة الإيديولوجية حاضرة بامتياز، ورؤية المثقف الملتزم تقوم كذلك بكثافة، باعتبارها قيمة وجودية أكثر من كونها معطى سياسيا مباشرا انطلاقا من انتماء وقناعة لحظية. ولكن المسألة تتجاوز ذلك بكثير، إنها دعوة إنسانية تعانق القيم التاريخية الحضارية: الديمقراطية، التعليم الجيد والبناء، الاقتصاد المبادر المتين والقوي، المؤسسات الاجتماعية المبدعة، والمواطن الحر....

مفاهيم وأخرى جاءت عند الأستاذ الشارني مباشرة أو من خلال نصوص وشخصيات الأعمال الروائية المنتقاة. ويصبح الأدب أكثر إيحاء للتعبير عن المشاعر الإنسانية الراقية، من كل التحليلات والتنظيرات المجردة في بنية مجتمعية لا تستسيغ قط ولا تتحمل التجريد، وداخل سياق مجتمعي رتيب جدا لا يتحرك إلا بشق الأنفس....

لقد عبر المؤلف ودائما من خلال حوارنا السابق أن كتابه هذا عن أشكال الهجرة والذات المحاصرة ارتبط بالغزو الهمجي البربري الأمريكي على العراق، وكذا بحالة سيكولوجية سوداوية نتيجة مرضه وبعده عن بلده تونس، مما ضاعف من عوامل الكآبة والحزن عنده والإحساس بالضياع والتيه. بقدر كذلك ما شكلت الرواية هنا ترياقا وأفيونا،بعد البوح والتصريح بهذه الهزائم التي تحولت إلى شعلة عند مدخل مدينة العرب، يستدل بها كل من حاول معرفة هذه الأسطورة التي أتخمتنا بزمن سابق للفاتحين. والحال هزيمة وهزيمة ثم هزائم.... ليفقدوا: «ليس فقط ممتلكاتهم ولكن كذلك روحهم. أي ليس الأبنية الاقتصادية هي التي دمرت ، ولكن كذلك بناءاتها الإيديولوجية والأخلاقية».

أهم الأطروحات التي دافع عنها الأستاذ الشارني في مقدمة عمله:

يؤكد الباحث أنه يسعى بأطروحاته الى تجاوز النقاش الزائف الذي محور الثقافة العربية في حلقة مفرغة، ونقصد بذلك الصراع بين المستشرقين والمثقفين الوطنيين.

جدال لم ينفع في أي شيء الثقافة العربية، بل على العكس جعلها تدور في نقاشات تتكرر وتعيد نفسها بشكل اجتراري، لتظل الشعوب العربية الخاسر الأكبر في هذه الدوامة العبثية.

لقد شكل ذلك حسب الأستاذ الشارني «فخا» للمفكرين العرب، وأثر سلبا على الثقافة العربية. سواء على المستوى الميتودولوجي المنهجي أو من خلال اشتغال المفهوم.

على ضوء الملاحظة الأولى، فإن الدراسات العربية أصبحت ضحية وحبيسة هذه الخطاطة والترسيمة، ذلك أن المستشرق يستفز بأسئلته، وبالتالي يكون «المثقف الوطني» مضطرا ويحس بإلزامية ومسؤولية الرد والإجابة على تلك الأسئلة. حيث يتم النظر إلى ذلك باعتباره « تهديدات خارجية».

من الناحية المعرفية، فإن هذا الصراع النفسي أثر على مقاربتنا للأشياء من خلال انتفاء وغياب الرؤية الموضوعية المحددة عقلانيا ومنهجيا تسندها الشروط الإبيستيمولوجية للفكر العلمي السليم. وهكذا عوض أن ندرك الأشياء في ذاتها، يتحول الأمر إلى كون أحكام الآخر هي التي تحدد مواقفنا. إنها نفس اللعبة التي كشف عنها فوكو حينما تحدث عن «تأسيس خطاب حول الخطاب».

النتيجة المنطقية لذلك هي إصابة الذات العربية بخلل عضوي وسيكولوجي على مستوى حضورها في العالم وعلاقتها بالأشياء والآخر. يؤكد الأستاذ الشارني: «إن مرضا للذات يمكن أن يؤدي بها إلى غاية التعملق والتضخيم إلى حد يحجب عنها ذلك العالم في بعده الحقيقي، مما يحدث ما نسميه بـ«الهرب إلى الأمام» كنوع من الحمى، تحمل الذات دائما اتجاه مستقبل مشرق ويحول ذلك بينها وبين أن تعيش الحاضر بأفراحه وأحزانه، ممكناته وحدوده. تقودها الباتولوجيا العكسية، إلى الهزال والسقم، ثم تتوغل في النكوص، وترتهن إلى ماض بعيد وأسطوري أكثر فأكثر. من البديهي انبثاق الوضعيتان عن نفس الرحم، نقص في العلاقة الدياليكتيكية»، ذلك أن: «الذات الاجتماعية، وبعيدا عن كونها مجرد دعوى ميتافيزقية، فإنها ليست إلا بناء تاريخيا.الأفراد ينتجون ذاتهم، ويصنعون وعيهم، وهم يبدعون حياتهم اليومية. هنا، وأكثر من أي موضع آخر، فإن الماهية معطى للوجود والكائن أكثر من أي وقت صيرورة. حيث نخلص من ذلك، الى أنه تكون يعني أن تعمل وتؤثر، أن تحقق وتتحقق كذلك. إننا لسنا إلا ما نصنعه كل يوم وبأيادينا الخاصة».

نجد إذن الخطاب العربي، سجين هذا الآخر وأفق هذا الآخر. وعوض أن يقرأ مباشرة «كتاب الطبيعة» يتحول إلى قارئ بالوساطة لكتب كتبت حول الطبيعة.

باختصار، الآخر هو الذي يحدد الأسئلة والمنطلقات النظرية . وبما أن النية والقصد كانا مبيتين، فقد غابت عنهما أدنى درجات الصدق. مسألة في رأيي، منسجمة مع ذاتها وطبيعية، لأن منطق الصراع التاريخي يفرض ذلك.

لقد وضعت الإشكاليات بطريقة ماكرة ومدروسة، حتى تقود إلى أجوبة مغلوطة، وبالتالي خلق وعي زائف لدى المثقف العربي.

ظلت الأسئلة ذات طابع اجتراري لا تقود إلى أية نتيجة، وشكل ذلك عائقا كبيرا للثقافة العربية، صراع مجاني بيننا وبين الآخر أغوانا عن طبيعة النقاش الحقيقي والصميمي، الذي كان من الممكن أن يطبع هذه الثقافة ضمن مسار إبيستيمولوجي مبدع.

يحيل الأستاذ الشارني بهذا الصدد على الرؤى النقدية الرصينة للمفكر المغربي «عبد الله العروي». حيث تبقى كتاباته أول وأهم الدراسات التي: «حللت ظاهرة إسقاط الذات على منظور الآخرية إلى درجة أنه لا يمكنها ضبط ذاتها إلا عبر هذا الآخر».

يقع هناك خلط فظيع بين المنهج والموضوع، ويغيب عنا السياق السوسيو ـ ثقافي لأي منهج، بمعنى ثان «رؤية العالم» التي تموضع أي منهج. عدم تملك المنهج، يعطي قيمة إضافية للموضوع، أو بالأصح ينتفي التوازن بين المنهج والموضوع. بالتأكيد اختلال يكون لصالح الموضوع تفتقد معه الذات قوتها وتماسكها.

لا شك أن النظرية هي بمعنى من المعاني وفي أبسط تعريف لها، صياغة للعالم، والمنهج يشكل قنوات لهذه الصياغة. وبين النظرية والمنهج تتأتى التجربة أو الوقائعية. تتحول النظرية إلى منهج، فيقوم التاريخ. يكون المنهج دائما نظرية، وحينما تغيب النظرية عن المنهج، يأخذ ذلك صيغة ديماغوجية. أما منهج بدون نظرية، فهو تكرار وحشو لغوي ليس إلا.

من الخطأ في التقدير، تفويت الفرصة على أحدهما مقابل الآخر. زمان النظرية هو نفس لحظة المنهج. ولقد تحدث كثير من النقاد عن لعبة استيراد المناهج وإسقاطها على واقع عربي لا يتحمل جسده السياقات المفهومية للرؤية التي تحكم هذه المناهج مؤكدين في هذا الصدد، بأننا اختزلنا في مئة سنة كأقصى تقدير ما عاشته أوروبا لقرون.

تحدثنا عن التاريخية والواقعية والبنيوية والماركسية والوضعية والتفكيكية وما بعد البنيوية والحداثة وما بعد الحداثة...، مختزلين بشكل مبتذل زمنا معرفيا من التجادل والتفاعل المستمرين بين الواقع والنظرية، إلى مواقف فكرية مجردة ومعزولة عن سياقها السوسيو ـ ثقافي ويتم اختبارها على واقع ذي بنيات مادية وفكرية هشة جدا.

هناك إذن بمعنى من المعاني تضخيم نظري وإيديولوجي ناهيك عن حدود ومستويات قراءاتنا لهذه المناهج، وطبيعة التأويل ثم ما يدخل في إطار ذلك من حيثيات اللغة والترجمة والفهم والاستيعاب والتأويل...، والذاتية والإسقاط واللاوعي.

غياب هذه الجدلية بين النظرية والواقع في الفكر العربي، أدى بالتأكيد إلى غياب وانتفاء كلي للرؤية التاريخية في تقييم العرب لذواتهم ولماضيهم وعلاقاتهم بالأشياء والعالم والآخر، وما يترتب عن ذلك من مواقف نفسية غير سوية في أفق صياغة علاقة موضوعية بالوجود، ذلك أن مرض الذات، يحجب عنها إدراكا حقيقيا للأشياء في أبعادها المحتملة والممكنة.

موقف كهذا، غابت معه الرؤية العقلانية التي تتجاوز في أبسط تعريف كل حمولة وجدانية تؤدي إلى تغليب هذا النزوع أو ذاك ، وتجاوز هذا الحس العصابي الذي يتراوح حسب الأستاذ الشارني بين: «تدليل» الذات على طريقة عنترة، أو تحقيرها على طريقة الحطيئة، بين الفخر والهجاء ولا سيما هجاء النفس. تتأرجح الذات العربية في الفراغ بشكل لا نهائي، مثل بندول.

وحده العقل، يبقى الفيصل الأساسي والجوهري، داخل مساحات التفكير في واقع مترهل وشائخ كما هو الحال مع الواقع العربي.

لم يتم لحد الآن التفكير بشكل عقلاني في ثلاث معطيات مصيرية. يتعلق الأمر بـ:

1ـ الهوية والاختلاف.
2ـ المسؤولية التاريخية.
3ـ المستقبل المشترك.

بلغة أخرى، سؤال الذات والواقع والآخر. الثالوث المفهومي الأساسي، والقانون السري لأي مجموعة إنسانية، تبتغي لذاتها مصيرا مقبولا ومستساغا حسب المعادلات التي تحكم التاريخ.

لقد وقف الأستاذ الشارني فعلا، بشكل دقيق على حدود هذه العلاقة. ولا شك أن كل متأمل، سيعرف أنه لا مناص لتأسيس مشروع مجتمعي من التفكير في قضايا الهوية (يات) والتاريخ والمستقبل.

وسنلاحظ بأن كل هذه الحدود تعكس بعضها البعض الآخر. لا مستقبل بدون هوية (يات)، ولا هوية (يات) بدون تاريخ، ولا تاريخ بدون مستقبل. كما أن التاريخ يؤسس للمستقبل، والمستقبل يبحث عن معنى للهوية (يات). في حين أن الهوية (يات) تحتم وتفترض مسؤولية تاريخية.

لكن شريطة البحث في هذه المفاهيم بمنطق تعددي منفتح، يتجاوز قطعيا أسس ميتافيزيقا الوحدة القائمة على الحصر والاختزال، التي أتعبت الفكر العربي مجانا، وجعلت من أسئلته على امتداد سنوات تحصيل حاصل واستدلالات بدون نتيجة، لأن المنطلقات النظرية المغلوطة تدمن نفس نقطة البداية، حيث فهمت الهوية والتاريخ والمستقبل بنوع من الاختزالية الدوغماطيقية. وبالأحرى، فالهوية هويات أي اختلاف وتعدد والتاريخ لا نهائي بدون بداية أو نهاية في حين أن المستقبل كوني.

الخطاب حول الهجرة، لا بد وأن يستفز ويخلخل الأسئلة الثلاث: سؤال الهوية والتاريخ والمستقبل، أو كذلك الذات والآخر والواقع.

لعبة المغايرة والاختلاف، تصطدم بشكل أو آخر بمرجعيات التماثل والامتلاء بالمفهوم الميتافيزيقي لذلك، حيث يعاد طرح الأسئلة من جديد. ذلك أن صدمة، «الهناك» ببنياته السياسة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية... خلفت لنا ولا شك مساحة أخرى لإعادة التفكير في شروط وجودنا.

تاريخيا، ابتدأ الوعي العربي نتيجة المجابهة الاستعمارية. ثم تبلور نقاش حول الوجود العربي ومصيره.

وإن كان الأستاذ الشارني يشير إلى أن طبيعة هذا الجدال لم يأخذ الوجهة المعرفية التي كان من الممكن أن تؤدي إلى أسئلة سليمة وأجوبة مبدعة.

ما الذي يحدد اليوم شيئا اسمه «هوية عربية»؟ ما دام أن الإجابة عن هذا السؤال قد تأخذ مرة من التاريخ ومرة من الجغرافيا وكثيرا من الايديولوجيا. أما السياسيون، فإنهم يتحدثون عن المصير المشترك.

لكن المسألة المثيرة حقا، هو أن تتم ملامسة هذه الهوية باعتبارها سيرورة ثابتة، محددة قبليا وبمعطيات مطلقة. ويتم الاعتقاد بأن هناك اتفاقا حاصلا حول المفهوم في حين أن الهوية، تظل لعبة ملتبسة ومنفلتة باستمرار. وبالتالي ما كان يشكل ويمثل «هوية عربية» في لحظة تاريخية محددة، قد لا يحافظ على نفس الحمولة النظرية في اللحظة المعاصرة مثلا. ليس هناك من «جوهر» في ذاته، وحده الزمان يلعب لعبته وبمكر.

وضع الذات في سياق التاريخ، وتحويلها إلى معطى واقعي، يمزق بقوة ستار التراكمات الفكرية المحكومة بتصورات كليانية، أخذت سواء من الدين أو الرؤى التاريخية المغلوطة، والتي كما أشرنا تستقي أصولها من ميتافيزيقا الوحدة، وبالتالي التخلص من كل الآليات النفسية التي تحول بيننا وبين الحرية.

لقد ظل المثقف العرب يصارع «طواحين الهواء». الأسئلة الزائفة والخاطئة والموجهة بشكل ديماغوجي، لن تؤدي طبيعيا إلا لتشكيل وعي زائف عن طبيعة القضايا التي يتحتم فعليا مواجهتها للدخول إلى العصر، وفهم منطقه أي تمكين المجتمع من أسس الحداثة، وبالتالي، سجن الفكر العربي ذاته ضمن رؤيتين مغلوطتين إحداهما خارجية والأخرى داخلية، علاقتنا بالآخر وتمثلنا لذاتنا.

* كاتب وباحث عربي